جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الانسانية
قسم التاريخ
دكتوراه تاريخ حديث

م/ الاشتراكية الطوبانية

اعداد : أ٠د. محمد يوسف القريشي

٢٠٢٥ ـ ٢٠٢٦

م/الاشتراكية الطوباوية

الاشتراكية: نظام سياسي واقتصادي حيث تكون وسائل الإنتاج مملوكة ومسيطر عليها بشكل جماعي، بهدف تحقيق المساواة والقضاء على الفوارق الطبقية.

الاشتراكية الطوباوية: نظرية سياسية واقتصادية تدعو إلى بناء مجتمعات مثالية قائمة على العيش التعاوني والمساواة الاجتماعية، في تناقض صارخ مع النظام الرأسمالي القائم. برز هذا المفهوم خلال عصر التنوير عندما بدأ المفكرون ينتقدون تفاوتات المجتمع الصناعي وسعوا إلى بناء مجتمعات متناغمة من خلال الملكية المشتركة والعيش المشترك.

نشأتها.

انتشرت فكرة الاشتراكية الطوباوية أو المثالية في العقود الأولى للقرن التاسع عشر بعد الثورة الصناعية التي أثرت على معطيات الإنتاج الأساسية وظهور خلل خطير في البنيان الاجتماعي وازدياد التفاوت بين من يملكون ومن لا يملكون. فبينما كنت رؤوس الأموال تتراكم عاش العمال حول المصانع في اكواخ متلاصقة لا تعرف النور أو الهواء وانتشرت البطالة وعم المرض ضمن هذه الظروف غير المؤاتية للعيش. وبشكل عام كانت فكرة الطوباوية مجرد حركة أدبية مع بعض المحاولات لاقتراحها كفكرة قابلة للتجسيد من أجل التغيير الاجتماعي.

كان أغلب أنصار هذه الأفكار الجديدة من الطبقات الوسطى والعليا وأشهرهم روبرت أوين و شارل فورييه. أما عن المبادئ الأساسية للاشتراكية الطوباوية، فما هي إلا نتيجة مباشرة للعصر الذي تشكلت فيه. ولذلك من الضروري أن نفهم طبيعة هذا العصر أولاً. الاشتراكية الطوباوية هي رد على حركة التمدن التي حصلت خلال الثورة الصناعية جراء الهجرة الجماعية لأفراد الطبقة العاملة إلى المراكز الصناعية

في المدن، مما أدى إلى السلوك غير الأخلاقي الذي قد يلجأ إليه بعض الأفراد نتيجة الفقر المدقع. بالإضافة إلى ذلك فقد كانت ظروف السكن بشعة وأصبح أمر الصرف الصحي يشغل جميع قاطني المدن. فهاجم الاشتراكيون الطوباوية الفلسفة السياسية والاقتصادية الفردية لأنها لا تضمن للعمال ملكية وسائل الإنتاج. وتجعل من الربح الشخصي المحرك الوحيد للنشاط الاقتصادي، وترفض مبدأ تدخل الدولة .

شكلت فكرة المدينة الفاضلة، حلمًا إنسانيًا متجددًا عبر العصور، حافزًا للتأمل في إمكانية مجتمع تتلاشى فيه مظاهر الظلم والفقر والصراع. لم تكن هذه الأحلام مجرد هروب من واقع مرير، بل كانت مختبرات فكرية جريحة لتشريح علل المجتمعات القائمة واقتراح بدائل لها. في هذا السياق، ارتبطت الاشتراكية، كفكر ونضال، ارتباطًا وثيقًا بالطوباوية، حيث تشكلت في أحضانها ثم انفصلت عنها في محاولة للانتقال من الحلم إلى الفعل، ومن المجتمع المتخيل إلى برنامج التغيير المادي.

فالاشتراكيون الطوباويون هم المصلحون الذين كانت أفكارهم مستوحاة إلى حد كبير من أفكار عصر التنوير والثورة الفرنسية، لاسيما في اعتقادهم بقدرة البشرية على التقدم والكمال. و كانوا يهدفون إلى تقوية الاقتصاد عن طريق إعادة توزيع الثروات بالتساوي والتخلص من كل ما يربطنا بالأشياء المادية تبلورت أفكارهم بثلاث مدارس، سان سيمون، شارل فورييه، روبرت أوين ولويس بلان.

اعتقد روبرت أوين (١٧٧١-١٨٥١) ، بأن البشرية لن يكون حالها أفضل إلا إذا تحسنت البيئة المعيشية حيث أن الأفراد يتشكلون بحسب بيئتهم، وبتحسين هذه البيئة قد نخلق جنة على الأرض. صدمت أفكار أوين كبار رجال الأعمال ورجال الحكومة في ذلك الوقت حيث صرح بأن تطوير إنتاج الآلة من أجل الربح سيؤدي إلى فقر العمال وتدهور أوضاعهم. كان تصوره للحل من خلال قرى التعاون وهي مجمعات

سكنية تجمع ٨٠٠ إلى ١٢٠٠ شخص ويعيشون في شقق يملكونها. وفي مجتمع كهذا سيكون هناك العديد من المهام لتأمين الاكتفاء الذاتي. أما بالنسبة للمصنع فسيكون على مسافة معقولة من المجمع السكني. تركت فلسفته انطباعا عميقا لدى العمال وبناءًا على تعاليمه فقد تم تطوير سلسلة من قرى التعاون للمنتجين والمستهلكين في جميع أنحاء إنجلترا. بقي من هذه القرى التعاونية "الحركة التعاونية الاستهلاكية".

أما شارل فوريه (١٧٧٢-١٨٢٧)، فقد رأى العالم الفعلي بحالة فوضى مطلقة. ورأى بأن الحل يكمن في إعادة تنظيم المجتمع إلى كتائب تحتوى على ١٦٠٠ أو ٢٠٠٠ شخص، نصفهم من الرجال والنصف الآخر من النساء يعيشون تحت سقف واحد كما هو الحال في الفنادق الفخمة. وكل شخص له خصوصيته مع اختلاف أسلوب الحياة حسب مقدرة الفرد على الدفع، وفي هذه الكتائب لا توجد حكومة ولا تلغى الملكية الفردية ولكنها تنظم على صورة النسب الآتية: ١٢/٤ لصاحب رأس المال، ١٢/٥ للعمال، ١٢/٣ للمهارة. وبالفعل فإن هذه الفكرة كانت منتشرة جدًا حيث أن في الولايات المتحدة وحدها كان هناك أكثر من ٤٠ مجمع للكتائب بما في ذلك مجمع بروك ورغم استمرار هذه المجمعات عدة سنين إلا أنها لم تدم. هذه الدعوة للتغيير وصفت بالخيالية لعدم جداوها من الناحية العملية حيث أن التغيير الجذري لا يتحقق عن طريق إقناع أصحاب رؤوس الأموال بالتنازل عن ارباحهم وباستثارة مشاعرهم الطيبة. ولكن بعد تفشي العنف قامت الثورة المسلحة بباريس ١٨٤٨ إثر البطالة. وفي ذلك العام تحديداً بدأ تحول جديد في مسيرة الفلسفة الاشتراكية.

· سان سيمون (١٧٦٠-١٨٢٥): ركّز سان سيمون على الجانب التقني والإداري، داعيًا إلى حكم "العلماء والمهندسين" والصناعيين لتحل محل الإقطاعيين والكهنة

غير المنتجين. كان مجتمعه المثالي مجتمعًا صناعيًا عالي الكفاءة، تُدار فيه الثروة لصالح الجميع، وتُلغى فيه الاستغلالية. تُلخص مدرسته الفكرة، بأنها سعت إلى "تنظيم المجتمع على أساس علمي، بحيث يحل النظام محل الفوضى.

كانت القاسم المشترك بين هؤلاء "الاشتراكيين الطوباويين" هو إيمانهم بقوة الفكرة المجردة والأمثلة النموذجية في إقناع البشر، بمن فيهم الأغنياء وأصحاب النفوذ، بتبني نموذجهم المجتمعي. كان تغيير المجتمع، في نظرهم، مسألة إقناع أخلاقي وعقلاني.

الماركسية ونقد الطوباوية

مع ظهور كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) وفريدريك إنجلز (١٨٢٠-١٨٩٥)، شهدت الاشتراكية تحولًا جذريًا. في كتابهما البيان الشيوعي (١٨٤٨)، خصصا قسمًا كاملًا لنقد الاشتراكية الطوباوية، معترفين بأهميتها التاريخية في نقد المجتمع القائم وتقديم عناصر للتفكير المستقبلي، لكنهما هاجماها لعدم واقعيتها.من وجهة نظر ماركس وإنجلز، كانت الطوباوية تعاني من ثلاث علل رئيسية:

١. اللامادية: فهي تتعامل مع التاريخ والمجتمع على أنهما نتاج للأفكار وليس للظروف المادية والصراعات الطبقية.

٢. الطابع الخيالي غير العلمي: تفتقر إلى تحليل علمي لقوانين تطور المجتمع، وخاصة قانون تطور القوى المنتجة والعلاقات الاجتماعية للإنتاج.

٣. غياب فاعل التغيير التاريخي: تتجاهل الدور التاريخي للطبقة العاملة كالقوة الوحيدة القادرة على قلب النظام الرأسمالي عبر الصراع الطبقي والثورة.

كما يوضح إنجلز في كتابه الاشتراكية الطوباوية والعلمية، فإن الاشتراكية، في نظره، لم تعد اكتشافًا لعقل عبقي، بل أصبحت نتيجة حتمية للصراع التاريخي بين طبقتين: البرجوازية وطبقة العمال. وهكذا، انتقلت الاشتراكية من كونها "طوباوية" إلى كونها علمية، مؤسسة على التحليل المادي للتاريخ والاقتصاد السياسي.

٣. الاستمرار الخفي: الطوباوية كحافز أخلاقي

رغم هذا الانفصال النظري الحاد، لم تستطع الاشتراكية "العلمية" أن تتخلص كليًا من الجذر الطوباوي. فقد ظل الحلم بمجتمع بلا طبقات، حيث يذوب جهاز الدولة، ويعمل كل حسب طاقته ويأخذ حسب حاجته، هو "اليوتوبيا" الماركسية نفسها. حتى النقد الموجه للرأسمالية كان يحمل دائمًا شحنة أخلاقية طوباوية، تتمثل في السخط على اغتراب الإنسان واستلابه.

المصادر.

١- ميشال شيحة، الفكر السياسي الأوروبي الحديث والمعاصر، دمشق، منشورات جامعة دمشق ، كلية العلوم السياسية ، ٢٠١٢.

٢- فردريك انجلو، الاشتراكية الطوباوية والعلم،دارالفاربي،بيروت،٢٠١٣.

٣- علي كريم الهلالي ،الاشتراكية الطوباوية مرحلة لابد منها في تطور الفكر الاشتراكي،٢٠١٥.

٤- انجلس، الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية، دار التقدم ، موسكو.